



عبد القادر الجزائري

المجاهد والفقيه الشاعر

- حارب الفرنسيين وكان مثالا للتسامح الديني.
- هادنه الفرنسيون بعد انتصاره في معارك ضدهم.
- خان المحتلون العهد فدحرهم إلى السواحل.
- بويع حاكما وعمره ٢٥ عاما، وحكم ١٥ سنة بالشورى وسداد الرأي.
- جمع أخلاق المتصوف المثقف مع العسكري المغوار ورجل الدولة.

كان ظلام القرنين التاسع عشر والعشرين، حالكا في عالمنا العربي والإسلامي. ففى أولهما انحدرت الدولة العثمانية إلى أدنى درك، وتفتتت فى مطلع الثانى، وورزح العالمان العربى والإسلامى تحت نير الاستعمار الغربى.

وما عبد القادر الجزائرى، سوى نجم سطع ولمع وتألّق فى سماء ذلك الزمن الحالك السواد.

وبيتتنا العربية غنية بالشخصيات الفذة التى طبعت عصرها وكان لها تأثيرها فى معاصريها وفى الأجيال اللاحقة، بما قامت به من أعمال وما سجلته من مواقف، وما أسهمت به من منجزات، مما جعلها قبسات مضيئة فى ذاكرة الشعوب العربية والإسلامية، وحافزا متجدداً لذوى النفوس الأبية الراضية للاستعباد، وأصبحت مع تعاقب السنين نمودجا يقتدى به كل من يعمل لصالح وطنه وشعبه، ومن هذه الشخصيات رجل ارتبط اسمه بالجزائر، وهو يعرف بالجزائر والجزائر المعاصرة تبدأ به، وتستمر من خلاله، هو الأمير البطل عبد القادر الجزائرى.

حياة هذا الأمير بما تمثله من قيم هى تاريخ الجزائر المعاصرة، فبالأمير يبدأ العصر الحديث فى الجزائر، وبه يرتفع التاريخ ارتفاع الساق والأغصان والأوراق من الجذر.

لقد عبر الأمير عبد القادر عن موقف الشعب الجزائرى الراضى للهيمنة الأجنبية، كما استجاب لتطلعاته فى إنشاء دولة حديثة فى إطار قيمة العربية ومبادئه الإسلامية، فكان بحق ابن بيته البار، وتناج ثقافته الأصيلة، ولسان عصره الصادق.

لم يسع عبد القادر الجزائرى إلى الإمارة، بل هى التى سعت إليه، عندما

بحث الجزائر عن شخص يقودها وهي تواجه خطر محو هويتها وكيانها، في هذه اللحظات الحاسمة يفتش الوطن عن الشخص الأمة الذى يستطيع أن يستوعب الأمة فى كيانه ويجسدها بأقواله وأفعاله، وكان الاختيار موفقاً، وحتى يعطى الأمير الشرعية لاختيار وجهاء الوطن له أصر على البيعة الشرعية التقليدية، فكانت البيعة الخاصة ثم العامة. وهذا أول درس يعطيه الأمير لكل المتطلعين إلى السلطة فى وطننا العربى، فالسلطة هى اختيار شعبى بإرادة حرة وبإجماع وطنى، وليست كنزاً يستأثر به أصحاب الشوكة.

رمز المقاومة الوطنية

ولم تغير السلطة شيئاً من نمط حياة الأمير، لم يغير الجاه والثروة والقوة من طبيعته ولم تفصله عن الإنسان العادى، ظل بين شعبه لا يفصله عنه أى فاصل، أى أنه تجاوز قرون الظلام وعاد إلى شفافية السلطة فى زمن الخلفاء الراشدين، حين لم يكن بإمكان أحد أن يميز الخليفة عن باقى أفراد الشعب.

وخلال خمسة عشر عاماً تولى فيها الأمير السلطة لم يكن ينفرد بالقرارات المصيرية، بل كان يستشير العلماء ورؤساء القبائل، ويأخذ فتاوى رجال الدين فى موافقه، ليؤكد أن الحاكم ليس صاحب القرار الوحيد، وإنما القرار هو مسئولية الشعب من خلال ممثليه المعترف بهم.

وحين وجد الأمير أبواب المقاومة قد أغلقت أمامه، ولم يعد قادراً على الوفاء بأمانة السلطة، وهى حمل راية الجهاد لإنقاذ الوطن، فضل بعد أن استشار رفاقه أن يتخلى عن السلطة ويستسلم للعدو مرفوع الرأس، ولم يرض - كما رضى غيره - أن يحتفظ بمظاهر السلطة تحت حراب الأجنبي، فهو يرى أن السلطة أمانة ورسالة، وعندما يعجز عن تحملها، فإن التمسك بها يصبح خيانة وتحويلها من التكليف إلى التشريف وكانت هزيمته فى المعركة انتصاراً حقيقياً لشخصه، وتحويل اسمه إلى رمز خالد للمقاومة الوطنية.

سيرة حياة وجهاد

عاش الأمير عبد القادر ثلاث مراحل متميزة بخصائصها وأحداثها ودلالاتها، الأولى قضاها في طلب العلم، وتعرّف فيها على أوضاع البلاد العربية من خلال رحلته لأداء فريضة الحج، وقضى الثانية في الجهاد ومقاومة العدو، وكانت الثالثة مرحلة غربة، حيث عاش أسيراً في فرنسا، ومجاهداً محتبساً في بورصة بتركيا ثم دمشق.

وُلِدَ الأمير عبد القادر في (١٥ من رجب سنة ١٢٢٢ هجرية/ سبتمبر ١٨٠٧م) بمقر أسرته بالقيطنة، الواقعة على سفح جبل إستانبول على الجانب الأيسر لوادي الحمام، وعلى بعد حوالي ٢٠ كيلومتراً عن مدينة معسكر. وكان رابع إخوته.

ونشأ في رعاية والده الأمير محيى الدين الحسينى الذى يتصل نسبه بالإمام الحسين، وكان والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية «القيطنة»، وتلقى تعليمه الأولى في كتاب الزاوية عن أبيه وبعض شيوخها، فأجاد حفظ القرآن، واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية، ثم ارتحل إلى «آرزيو» وهو في الخامسة عشرة من العمر ليدرس على يد قاضيه الشيخ أحمد بن الطاهر، وانتقل منها إلى مدينة «وهران»، ليتسبب إلى مدرسة «أحمد بن خوجه» المخصصة لأبناء الأعيان، حيث أمضى فيها ما يقرب من سنة انكب خلالها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية، وصقل ملكاته الأدبية والشعرية.

واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية، حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان، لمهارته في ركوب الخيل.

وفى سنة (١٨٢٣) زوجه والده من ابنة عمه «لالاخيرة»، وصحبه في (نوفمبر سنة ١٨٢٥)، إلى الديار الحجازية، لأداء فريضة الحج والزيارة، ومرا في رحلتها بالإسكندرية وزارا القاهرة، في عهد محمد على باشا الذى أكرمهما وحاشيتهما ثم واصلا رحلتها إلى الحجاز عن طريق السويس، وعرجا بعد الحج

على دمشق فأمضيا فيها زمناً، ثم سارا منها إلى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى (مؤسس الطريقة القادرية)، وغادرا بغداد نحو دمشق ومنها إلى المدينة المنورة ومكة لتأدية مناسك الحج والعمرة، ثم عادا إلى وطنهما فى أوائل سنة (١٨٢٨م).

وإزداد عبد القادر بعد هذا السفر شغفاً بالعلم، فاعتزل لتحصيله، ولزم الخلوة، حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة، ودرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وارسطاطاليس، وتعمق فى درس الفقه والحديث والجغرافيا والفلك والتاريخ، وكُتِبَ العقاقير.

مبايعة الأمير عبد القادر

استولى الفرنسيون على الجزائر سنة ١٨٣٠ ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبلاد، وإخراجها من أيدي العثمانيين، ورغم مقاومة القبائل سيطر الفرنسيون بقيادة «برمونت» على جبال الأطلس ومدينة «وهران»، وكان من نتيجة الاحتلال الفرنسى لتلك البلاد أن اختلّت الأحوال فيها وسادت الفوضى، فاجتمع المرابطون ورؤساء القبائل، وفى مقدمتهم الأمير محبى الدين، وتشاوروا فى الأمر، فاستقر الرأى على الانضمام إلى سلطان مراکش «مولاي عبد الرحمن»، فدخلت الجزائر فى سلطانه، مما أدى إلى غضب الفرنسيين، وبعثوا إلى سلطان مراکش مهددين بالحرب إذا لم يسحب جنوده من الجزائر، فأثر الانسحاب.

واجتمع كبار الجزائريين إثر ذلك للتشاور فى الأمر، واستقر رأيهم على إقامة الأمير محبى الدين سلطاناً على البلاد، وذهبوا إليه فى بلدته «القيطنة» حيث عرضوا عليه الأمر وأرادوا مبايعته، ولما أمسك عن الإجابة هددوا بقتله إن لم يقبل فاستجاب لرغبتهم، على أن تكون السلطة لولده عبد القادر، فقبلوا ذلك راضين مرضيين.

كان الأمير عبد القادر فى ذلك الوقت يحارب الفرنسيين فى حصن «فيليب»

فبعثوا إليه وبايعوه، وسنه إذ ذاك ٢٥ سنة، تمت له البيعة على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غريس في (رجب ١٢٤٨ هجرية/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢) وحصلت له البيعة العامة بمعسكر في (١٧ رمضان ١٢٤٨ هجرية/ ٤ فبراير ١٨٣٣م) وعلى إثر مبايعته قصد إلى المسجد الجامع حيث صلى بالناس وخطب حاثاً إياهم على الطاعة، والعمل بمقتضى الشرع الشريف، والاعتداء بالخلفاء الراشدين.

وجمع كلمة القبائل، وضم بعضها إلى بعض لكي تقوى على مقاومة الفرنسيين وإخراجهم من البلاد. وخاض عدة وقائع فاز فيها عليهم، ولاسيما موقعة «وهران» التي انتصر فيها انتصاراً كبيراً، فهابه الفرنسيون، وأخذوا يخشون بطشه منذ ذلك الحين. وعقد قائدهم «ديمشيل» معه معاهدة صلح سنة (١٨٣٤م).

كروء.. وهرء

ولما هدأت الأحوال، تفرغ الأمير عبد القادر لإصلاح الشئون الداخلية في بلاده، وواصل في الوقت نفسه إعداد العدة لمواجهة الحرب، فأنشأ مصانع للأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود، ونظم الجيش مما أتاح له النصر في عدة مواقع منها معركة المقطع في (١٨ يونيو ١٨٣٥م) التي أرغم خلالها القوات الفرنسية على الرجوع إلى «وهران». وبعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة هاجم الفرنسيون مدن الأمير عبد القادر الرئيسية فاستولوا على «معسكر» ثم «تلمسان»، لكن ذلك كان دافعاً ليوصل الأمير ضغطه على القوات الفرنسية وتكبيدها خسائر كبيرة في الرجال والعتاد، مما اضطر الفرنسيين للصلح معه، لما تأكدوا من بسالته وقوة احتماله، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة «التافنة» في (٣٠ مايو ١٨٣٧) التي تقضى بتبادلها التمثيل القنصلي، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاوره فرنسا.

اهتمام بالشئون الداخلية

وجه الأمير عنايته بعد ذلك إلى إصلاح الشئون الداخلية لبلادته وبناء مؤسساتها، كما واصل الاستعداد العسكري كعادته لمواجهة الطوارئ، وأنشأ مدينة تجارية سماها «تقدمة»، كما أنشأ كثيراً من المعامل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه، وأنشأ مصانع لإنتاج المدافع ومختلف الأسلحة فى تلمسان وغيرها، وعمل لاستخراج المعادن، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة، ونشر التعليم بالإكثار من المدارس، واعتزم إنشاء جامعة كبيرة فى «تقدمة» تجمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الحديثة، وضرب نقوداً فضية ونحاسية.

معارك وانتصارات

وكان شديد التيقظ، دائم السهر على مصلحة بلاده، حريصاً على تفقدتها بنفسه، ولكن الظروف لم تسمح باستقرار الأمن فى الجزائر، إذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على «قسنطينة» فى مد سلطانهم على المناطق المجاورة لها، برغم وقوعها فى حدود سلطة الأمير بمقتضى معاهدة «التافنة»، وعبثاً حاول الأمير حمل حكومة باريس على احترام المعاهدة، فأخذ فى تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها، وعندما نشبت الحرب تمكن الأمير من دحر القوات الفرنسية وطردها إلى السواحل.

وعظم الأمر على الحكومة الفرنسية، وأرسلت إلى قواتها المنحدرة فى الجزائر نجدة كبيرة، فاستأنفت الهجوم على الأمير ورجاله، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من جبال الأطلس، فتغلب الفرنسيون أول الأمر، لكن الأمير سرعان ما تدارك الموقف، وأعاد تنظيم رجاله ثم كرّ على القوات الفرنسية، فما لبث أن هزمها واضطرها إلى الانسحاب.

وتوالى المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات، واضطرت فرنسا فى نهايتها إلى تغيير قائد قواتها فى الجزائر بقائدها القديم الجنرال «بوجيه»، وبعثت معه

بإمدادات كثيرة من الجند والأسلحة، ولكنه لم يثبت فى هذه المرة أيضا أمام الأمير المغوار.

ولما رأى الأمير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب، أنشأ مدينة متنقلة سماها «الزماله»، وهى مؤلفة من خيام تقام على نظام شوارع المدن وتتبع الجيش فى حله وترحاله، حيث يعمل فيها الصناع، ويُحتفظ بالأسرى ويلجأ إليها المتعبون من الجند، كما يقيم بها النساء والأطفال، وتُعدّ الأسلحة للجنود العاملين. وقد انتفع الأمير بهذا النظام إلى حد كبير، حمل الفرنسيين على توجيه الجانب الأكبر من نشاطهم إلى حرمانه من تلك المدينة واستطاعوا الوصول إليها بواسطة بعض الخونة فأحرقوها، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة «تقدمة»، ونهبوا يوم ١٦ مارس ١٨٨٣ ما كان فى «الزماله» من مؤمن ومعدات كما قتلوا عدداً كبيراً ممن كانوا بها.

حرب العصابات

ولم يحقق الفرنسيون النصر النهائى على الجزائريين باستيلائهم على العاصمة المتنقلة «الزماله»، وهذا ما أكده الأمير عبد القادر بنفسه فى رسالته إلى المارشال بيجو بقوله: «إن الضرر الذى اعتقدت أنك الحقته بنا لم يكن سوى بمثابة أخذ كأس ماء من بحر، وإن عملكم لا يتجاوز الأثر الذى يتركه الطائر عندما يلامس بجناحيه موجة من أمواج البحر».

واضطر بعد سقوط عاصمته المتنقلة «الزماله» وتناقص عدد جيشه إلى ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة، إلى اتباع أسلوب الكر والفر، فكان يتنقل سريعاً من مكان إلى آخر، وبيّغت العدو على حين غرة، ثم يتراجع بعيداً، فأرسى بذلك أول تجربة كبرى فى حرب العصابات فى التاريخ الجزائرى المعاصر، واجه أثناءها مطاردة ثمانى عشرة فرقة عسكرية فرنسية طوال خريف وشتاء عامى (١٨٤٥ و ١٨٤٦)، كما فرض عليه الانتقال على ظهر جواده وبصحبة فرسانه

آلاف الكيلومترات، تجول فيها من بلاد القبائل إلى جهات الريف بالمغرب الأقصى، ومن نواحي تلمسان إلى تخوم الصحراء بالعقيق والأغواط.

ومع استمرار الضغط الفرنسي عليه، طلب الأمير عبد القادر من أسرته التوجه إلى المغرب الأقصى، وكان يأمل أن يقف السلطان المغربي إلى جانبه فلم ينجده، في حين تلقى الفرنسيون نجات كبيرة وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاونتهم ضده. لكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد، فظل يقاتل بشجاعة في مختلف ميادين القتال التي شملت الجزائر كلها، حتى نهاية (سنة ١٨٤٦م).

وحاول الأمير أن يثنى سلطان مراكش عن محاربتة مذكرا إياه بصداقتهما القديمة، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية، ولكنه لم يستجب له وخيره بين التسليم، أو الرحيل إلى براري الجزائر.

وعندما توجهت القوات المغربية لمحاصرته بنواحي ملوية، دخل معها في ثلاثة اشتباكات دامية نواحي قلعة سلوان في شهر (محرم ١٢٦٤هـ/ديسمبر ١٨٤٧). وعندما صمم المغاربة على مواجهته والقضاء عليه تنفيذاً لمعاهدتهم مع الفرنسيين «لا لا مغنية ١٨ مارس ١٨٤٥). عقد الأمير آخر اجتماع لمستشاريه.

حكمة قرار التسليم

جمع الأمير عبد القادر رجاله على ظهور الخيل وفي ظلمة الليل حتى لا يفتن إليهم المغاربة أو يتبه لأمرهم الفرنسيون الذين كانوا يراقبون تحركاتهم من بعيد. وخطب فيهم مصرحاً بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم، قال في صوت كله إيمان وصبر: «لم نجد مستندا نستند إليه إلا الله... وصرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى جند الفرنسيين أولى إلى التولى للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع عدوهم، الفرنسيون يعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة ولو كانوا أعداء، فالليل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين «البدو» الذين لا يعرفون

قدرًا ولا يفرقون بين سليم وسقيم، ولقد وفيتم بما بايعتموني عليه، وبذلتم جهدكم في معاضدتي. أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشيين، والرأى لكم فى الحالين»، فأجابوا بأنهم على رأيه.

وحددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة (١٨٤٧) للتوقيع على شروط التسليم، وفى مقدمتها أن يغادر الأمير وحاشيته البلاد إلى الإسكندرية أو مدينة بورصة التركية للإقامة بها، وكانت ليلة ممطرة، شديدة العواصف، فأناب الأمير رجلين من خاصته وحملهما خاتمة للتوقيع على الشروط فى معسكر الفرنسيين، وما علم القائد الفرنسى برغبة الأمير فى التسليم طبقًا لهذه الشروط حتى وافق فورًا. ولما ذهب الأمير بعد ذلك إلى المعسكر الفرنسى قوبل بالتكريم والاحترام.

ولم يكن توقف الأمير عبد القادر والمجاهدين معه عن مقاومة العدو صادرًا عن خوف أو تخاذل أو تخل عن أداء الواجب، وإنما كان بفعل تفوق العدو عدة وعدداً، وعداء الصديق وتخاذل الحليف، وتحول الأهل والقريب.

بداية رحلة الاغتراب

وأبحر الأمير فى ٢٥ من ديسمبر، ومعه حاشيته البالغة ثمانون فردًا على سفينة حربية، أقلتهم إلى طولون، حيث قوبل الأمير بترحاب، وعُرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفًا مكرمًا على حكومتها هو ومن معه، ولكنه لم يقبل، وأثناء ذلك وقع الانقلاب فى فرنسا وتحولت من ملكية إلى جمهورية، فطال الأخذ والرد بين الأمير والمسئولين الفرنسيين الجدد، ثم وافقوا على مغادرته فرنسا إلى حيث شاء، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم إلى الجزائر، وكُتب هذا العهد فى مارس (١٨٤٨م).

وكان الأمير يستعد للرحيل هو ورجاله عندما صدرت الأوامر من الجمهورية الفرنسية الجديدة باعتباره أسيرًا، ثم رُج به وبرجاله إلى السجن فى «أيسس»، فلبثوا فيه حتى أكتوبر (سنة ١٨٥٢)، حيث عكف الأمير على الكتابة والتأليف.

وبعد أن زاره نابليون في معتقله ببضعة أيام، صدرت الأوامر بإطلاق سراح الأمير عبد القادر ورجاله، وأقام له نابليون مأدبة كبيرة في قصره، وأهدى إليه جواداً عربياً أصيلاً، وفي ٢١ من ديسمبر (١٨٥٢)، غادر الأمير فرنسا مودعاً باحتفال كبير قاصداً، مدينة بورصة في تركيا للإقامة بها حتى سنة (١٨٥٥)، حيث انتقل في هذا العام للإقامة بدمشق حيث قوبل بترحيب شعبي كبير، وأقام فيها بمبنى يدعى «العمارة» حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصوف والتفسير والحديث، مقسماً وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسة العلماء والفضلاء.

موقف إنسانى نبيل

ومن المواقف الإنسانية المشرفة للأمير في أثناء إقامته بدمشق، حمايته للمسيحيين عندما اشتعلت الفتنة الطائفية ضدهم في لبنان عامة ودمشق خاصة سنة (١٨٥٦)، لم يتردد الأمير في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ففتح مقر إقامته وإقامة أتباعه لاستقبال النصارى المهتدين في حياتهم، ويرجع إليه الفضل في إنقاذ حوالي ١٥ ألفاً منهم، وفي أثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه سراً إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسى الذى نزل جبل لبنان، وأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما تحل الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها. فحال دون حدوث مذبحه كبيرة في دمشق، وكانت وساطته خيراً للجميع.

كان موقف الأمير عبد القادر هذا مثار تقدير السلطان العثمانى، وإكبار وإجلال ملوك أوروبا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين، إعترافاً بموقفه الإنسانى النبيل.

كان الأمير مدة إقامته بدمشق يميل إلى التأمل والدراسة والذكر، وكان من حين إلى آخر يشد الرحال للقيام بزيارة أو سفر، حيث زار بيت المقدس والخليل، (١٨٥٧)، وسافر إلى حمص وحماة (١٨٦٠)، ثم سافر إلى

الإسكندرية (١٨٦٢) ومنها إلى السويس، ثم جده، وأدى مناسك الحج وزار الطائف والمدينة، وقضى هناك سنة ونصفاً في العبادة والذكر والتأمل، وفي ربيع سنة (١٨٦٥) توجه إلى إستانبول للتوسط لدى السلطان عبد العزيز للتخفيف عن المتورطين بالفتنة الطائفية بالشام، ثم سافر إلى باريس ولندن.

أصبح الأمير عبد القادر شخصية عالمية تحظى بالتقدير والاحترام في كل مكان تحمل به، وقد لقي كل حفاوة وتكريم عندما دعاه خديوى مصر لحضور احتفال افتتاح قناة السويس سنة (١٨٦٩).

تفرغ الأمير بعد ذلك للعبادة وعمل الخير، والتأليف، والاطلاع، وعُرف بين الناس بعلمه وتقواه وورعه ومعيشته البسيطة، فعاش ما تبقى له من حياته بدمشق معظماً مكرماً من الجميع، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه منزلة ابن عربى والنابلسى.

وفى منتصف ليلة السبت (١٩ من رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٦ من مايو ١٨٨٣) توفى الأمير عبد القادر الجزائرى عن عمر يناهز ستاً وسبعين سنة، قضاها في العلم والعبادة والجهاد في سبيل الله والوطن.

أخلاق العالم وتصرفات البطل

كان الأمير عبد القادر مربوع القامة، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، أقى الأنف، أشهل العينين، أضبط، يستعمل بيساره ما يمكن أن يؤديه بيمينه، متواضعاً، متثدأ في مشيته، جهورى الصوت، قوى اللهجة، أجش النغم، وهو مع ذلك كان يتصف بالبشاشة والتأدب ولين الطبع، ويفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأبهة، ويميل إلى حياة التقشف والبدواة.

وقد عُرف عنه أنه يكره الجشع والإسراف ويميل إلى التقشف ويقلل من الأكل، وقد يقنع بشيء من الحليب والسويق (الدقيق المطهى مع شيء من الماء

والملاح) وقد يكتفى في بعض الأحيان بما يصطاده من طريدة، وهذا ما ساعده على اعتدال مزاجه والمحافظة على صحته وقواه العقلية والجسمية إلى آخر عمره. أما لباسه فيقتصر على قميصين أحدهما من القطن والآخر من الصوف، مع عمامة ولحاف من الوبر يغطى رأسه ويلف رقبتة، وقد يضع عند الحاجة برنسا أبيض.

أما فيما يختص بسلوكه وتصرفاته، فقد جمع فيها بين أخلاق العالم، وتصرفات البطل، وسلوك زعيم الجماعة وشيخ الطريقة عن سجية، وفي تواضع وبدون تكلف كان متمسكا بتقاليد أسرته، ودوداً لأهله، معروفا بطاعته لوالديه.

وتتميز نظرة الأمير عبد القادر إلى الحياة بتأثره بالعواطف النبيلة، فهو يقدر عاطفة الحب، كما يُعجب بالطبيعة، وقد عبر عن كل ذلك في شعر رقيق جميل.

والجانب اللافت للنظر في شخصية الأمير عبد القادر هو فروسيته وما يتصل بها من شجاعة وإقدام وحنكة، فقد ولع الأمير منذ شبابه بركوب الخيل، ومارس منذ صغره الصيد، فكان يقضى ساعات طوالاً من يومه على ظهر فرسه الذي كان أعز شيء عنده، ولم يكن يشغله عن هواية الفروسية سوى قراءة الكتب والإنزواء للعبادة والذكر.

ومن الملامح المميزة لشخصيته تصوفه، وخاصة في دار هجرته، وإن كان قد تشربه منذ طفولته في زاوية أبيه باليقطنه، وتعمقت هذه النزعة في نفسه أثناء سجنه بفرنسا وبعد إقامته بالحجاز مدة سنة ونصف.

سر عبقرية الأمير

لقد كانت حركة الأمير عبد القادر الجهادية ومحاولته بناء دولة حديثة استجابة موفقة لتجاوز العجز الذاتي الذي عاشه العرب والمسلمون لعدة قرون بعد أن تحطمت قدراتهم الذاتية. فالمحلل لمعطيات التاريخ الجهادي للأمير عبد القادر يرى أن هذه التجربة كانت موفقة إلى أقصى حد، بالرغم من قصر مدتها، لأن الأمير استطاع أن يحقق تلاحم العوامل الدينية والثقافية والعسكرية في وضع التصور

وتنفيذ القرار. جمع الأمير هذه الأبعاد الثلاثة في سلوكه وثقافته وتصرفاته، وحقق بذلك تكامل القوة العسكرية مع نظرة الإنسان المثقف ومع الدافع الديني، فسر عبقرية الأمير عبد القادر يكمن في أنه استطاع أن يكون قائداً عسكرياً محنكاً قادراً على جمع الكلمة، وفقياً عارفاً بأحكام الشرع وملتزماً بتطبيق الشريعة، وعالمًا واسع الفكر متسامحاً مع الآخر ومتفتحاً على واقع مجتمعه ومقتضيات عصره.

إن ملحمة الأمير عبد القادر الجهادية بالرغم من قصر مدتها الزمنية ونجاح الفرنسيين في وضع نهاية مأساوية لها، إلا أنها في مجال الذاكرة التاريخية للأجيال العربية كانت وستظل تجربة رائدة للإسهام العربي في صنع الأحداث وتغيير الواقع.

فقد جمعت بين مواجهة العدو وبناء الذات في آن واحد، ووافقت بين القيم الحضارية والأحكام الدينية، ومتطلبات المجتمع وحاجاته، بحيث يتكامل عمل الفقيه في المدينة مع نشاط المرابط في الريف، وتتلاحم مهمة موظف الإدارة في المدينة والجندي في ثكته، مع طبيعة عمل المشتغل في الحرف والقائم على فلاح الأرض، وهذا أساس نجاح الأمم وسر تقدم الشعوب.

رب السيف والقلم

لقد كان الأمير عبد القادر فارساً بالسيف والقلم، سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وخط بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

ترى منذ نعومة أظفاره على الأدب العربي القديم وتأثر بشعرهم، وقال الشعر في أغراضه المختلفة من فخر وحماسة وعاطفة نبيلة، يعبر عن عاطفة المحبة والإخلاص التي يكنها لزوجته من خلال هذه الأبيات:

جفانى من أم البنين خيالُ

فقلبي جريح والدموع سجالُ

وما هي إلا الروح، بل إن فقدتها
فلإن بقائى دونها لمحال
فقولوا لها إن كنتِ ترضين عيشتى
فجودى بطيف إن يعز وصال

كما قال شعراً فى جمال الطبيعة وتأثيرها على النفوس، وقال القصائد
الكثيرة فى وصف الأماكن التى زارها أو أقام بها، كما سجل معاركه مع
الفرنسيين فى أبيات شعر تنطق بطولة وفداء، ومن جميل شعره فى
الفروسية قوله:

فخيلنا دائماً للحرب مسرجه
من استغاث بنا نبشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً
وأى عيش لمن قد بات فى خفر

وله العديد من القصائد فى التصوف منها هذه الأبيات:

أنا حق، أنا خلق
أنا رب، أنا عبد
كل كون ذاك كونى
أنا وحدى أنا فرد
أنا الحب والمحبوب والحب جملة

أنا العاشق المعشوق سرّاً وإعلاناً

وللامير عبد القادر بعض المؤلفات فى التصوف والعقيدة والأخلاق ومن
مؤلفاته:

• «المقراض الحاد لقطع لسان الطاعنين فى دين الإسلام من أهل الباطل والإحاد».

• «ذكرى العاقل فى تنبيه الغافل».

• «المواقف فى التصوف» ويتضمن مقدمة وثلاثة أجزاء.

• إضافة إلى ديوان شعر صدر فيما بعد بعنوان: ديوان الأمير عبد القادر شرح وتحقيق ممدوح حقى.

وعمومًا يمكن القول إن الأمير عبد القادر كان ابن الحضارة الإسلامية التى ظل اسهامها الفكرى ونزعتها الصوفية تتميز بالرقى الروحى والجسدى والعقلى.

عودة البطل

بعد أن تحررت الجزائر من الاستعمار الفرنسى، وتحقق الأمل الذى ناضل وجاهد من أجله البطل الأمير عبد القادر الجزائرى، وباعتباره رمز للنضال وبطل الكفاح، ونظرًا لأن ثورته تعد تجربة تاريخية تؤكد استمرارية الدولة الجزائرية، بادرت حكومة الجزائر المستقلة سنة ١٩٦٦ إلى نقل رفاته، من دمشق إلى الجزائر، فى جو من الاحتفالات الوطنية المدوية والمهرجانات الشعبية الصاخبة، ليعود المجاهد إلى الأرض التى شهدت جهاده وكفاحه لأكثر من خمسة عشر عامًا، لترقد روحه فى أمن وسلام فى ثرى البلد الذى عاش ومات يناضل من أجله.

عشرة أولاد وست بنات

تزوج الشيخ محبى الدين الحسينى من أربع نساء هن: وريدة ولدت له محمد العبد ومصطفى، والزهراء ولدت له عبد القادر «الأمير» وخديجة، وفاطمة ولدت له الحسين، وخيرة ولدت له المرتضى.

أما الأمير عبد القادر فقد ارتبط في أول الأمر و «لا لا خيرة» التي أشار إليها في شعره بـ «أم البنين» وعندما استقر بالشام كان له أربع زوجات، وكان مجمل أولاده من بنين وبنات ستة عشر، منهم عشرة ذكور، وهم: محمد، محيي الدين، الهاشمي، إبراهيم، أحمد، عبد الله، علي، عمر، عبد الملك وعبد الرزاق، بالإضافة إلى ست إناث.